القسم الثانى

اللغة العربية فى المغرب الأدنى

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة القسم الثانى

تأتى هذه الدراسة عن استطيان اللغة العربية فى المغرب الأدنى كالأثر أو النتيجة لاستيطانها فى مصر . فلم تكن المناطق الشرقية من المغرب العربى أثناء تبعيتها تدار مباشرة من مركز الخلافة ، وإنما من مصر . ولم تكن جيوش المسلمين تأتى من المدينة أو دمشق أو بغداد ، وإنما من مصر . كما أن حركات التهجير أو الاستيطان للقبائل العربية لم تكن تتزود بالأمداد من الجزيرة العربية ، وإنما من القبائل العربية المقيمة فى مصر .

وإذا كان انتشار الإسلام وتوافد العنصر العربى إلى البلاد المفتوحة أهم عاملين من عوامل توطين اللغة العربية وتوطيد دعائمها ، فإن محدودية أثر العامل الثانى فى منطقة الدراسة ، وضعف أثره فى القرون الأولى كان له أكبر الأثر فى تأخر انتشار اللغة العربية فى هذه البلاد كلغة أولى بالنسبة لسرعة انتشارها فى مصر .

وقد سبق أن نشرت هذه الدراسة كجزء من دراسة مطولة عن ليبيا ، كما سبق أن ذكرت فى مقدمة الكتاب العامة . ولكن لما كانت حدود ليبيا فى ذلك الوقت لاتتطابق مع حدودها فى العصر الحاضر ، وإنما كانت فى غالب أمرها جزءا من مناطق تمتد إلى الشرق أو الغرب[1] – فقد رأيت أن أستبدل بلفظ «ليبيا» لفظا آخر أوسع وأشمل ، وهو «المغرب الأدنى» الذى يغطى – إلى جانب ليبيا – أجزاء من تونس والجزائر الحالية .

---

(١) كانت منطقة برقة تتبع فى كثير من الأحيان مصر ، وقد يكون لها استقلالها الخاص . وكانت المناطق الساحلية من طرابلس تستقل أحيانا بوضع خاص عن المناطقة الجنوبية من طرابلس ، وكانت أحيانا تتحد معها . وفى كلتا الحالتين كانت تعد إداريا جزءا من مناطق تمتد إلى جهة الغرب .

obeikandl.com

الباب الأول

دراسات تمهيدية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

البربر قبل الإسلام

أصل البربر :

يعد البربر أقدم سكان الشمال الإفريقى المعروفين لنا ، أو على الأقل من أقدم السلالات المعمرة فى الشمال الإفريقى [1] ، وقد كانوا حين الفتح الإسلامى طائفتين : طائفة الحضر وطائفة الرحل . أما الأولون فكانوا يسكنون النواحى الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة ، وهؤلاء بمرور الزمن اندمجوا فى الروم ونسى بعضهم قوميتهم وعاداتهم [2] . وأما الآخرون فكانوا يسكنون الصحارى والواحات والجبال ، وهؤلاء احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم ، وكثيرا ما قاوموا الروم ، ولم يتركوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها ، حتى إنه بمجىء القرن السابع الميلادى كان نفوذ الروم قد تقلص من داخل البلاد وانحصر فى السواحل [3] .

وآثار البربر تدل على أنهم جيل عزيز ، مرهوب الجانب ، شديد البأس ، كثير الجمع ، مضاه للأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم . وهناك آراء متعددة فى بيان أصل البربر ، وموطنهم الأول ، وكيفية وجودهم فى الشمال

---

(١) الجوهرى : السلالات البشرية ص ٣٢٧ .

(٢) الزاوى : تاريخ الفتح العربى ص ٢٨ .

(٣) المرجع والصفحة ، وشيت خطاب : قادة فتح المغرب العربى ١/١٧ ، ١٨ .

obeikandl.com

الإفريقى لايخرج بعضها - فى الحقيقة - عن أن يكون مجرد فروض[١] . وأهم هذه الآراء :

١- أن البربر كانوا يسكنون فلسطين ، وكان ملكهم جالوت . فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حيث انتهوا إلى لوبية ومراقية ، وهما كورتان من كور مصر الغربية فتفرقوا أولا هنالك ...[٢] . وقيل إن الذى أخرجهم من فلسطين بعض ملوك فارس[٣] . ويذكر بعضهم أن تلك الهجرة كانت فى العصر الحجرى وقبل ميلاد المسيح بمدة لاتقل عن ثلاثين قرنا[٤] . ويفهم من كلام صاحب الاستقصا أن هجرة البربر إلى الشمال الإفريقى تمت على مرحلتين ، المرحلة الأولى فى فترة متقدمة من التاريخ حين تنازع بنو حام مع بنى سام فترك عدد منهم فلسطين وذهبوا إلى المغرب . أما الباقون فظلوا بفلسطين حتى زمن داود ، فلما قتل داود جالوت أمر بإجلائهم عن بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب[٥] .

٢- أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من مكان آخر[٦] .

---

(١) يقول مبارك الميلى معبرا عن ذلك : «الحديث فى أصل البربر من أكثر الأحاديث اضطرابا وأوسعها خلافا ، بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا وأطالوا البحث ولكنهم لم يحصلوا من ذلك إلا على روايات متضاربة وآراء متناقضة» (تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٨) ويقول صاحب الاستقصا : «واعلم أن الخلاف فى نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصارا» (٦٣/١) .

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأفريقية ، مقتبس فى إحسان عباس : ليبيا فى كتب التاريخ والسير ص ٢٩ .

(٣) عبدالمنعم عبدالعال : لهجة شمال المغرب ص ٣٢ .

(٤) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ٢٣/١ .

(٥) الاستقصا ٦٠/١ .

(٦) تاريخ الجزائر ص ٤٨ .

٣- أن أصلهم من اليمن من عرب حمير [١] .

٤- أن أصلهم من عرب الشمال ، وبالتحديد من لخم وجذام .

٥- والرأى الذى اختاره ابن خلدون أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح . وذكر أن أبناء حام ثلاثة : كنعان جد البربر - ومصرايم جد قدماء المصريين - وفلسطين جد الفلسطينيين القدماء [٢] .

والذى يهمنا من رأى ابن خلدون ما توصل إليه من أن البربر حاميون وليسوا ساميين وهو الرأى الذى ترجحه الدراسات اللغوية المقارنة التى تربط اللغتين البربرية والمصرية القديمة برباط واحد وتضعهما فى مجموعة واحدة كما سنفصل الحديث فيما بعد .

٦- ويفرق جوستاف لوبون بين نوعين من البربر فيقول : إن المهاجرين السود الشعور قد أتوا من شواطىء الفرات ومن شمالى الجزيرة العربية أو من مكان أبعد من ذلك ، أما المهاجرون الشقر الشعور الزرق العيون فقد جاءوا من شمالى أوربة [٣] .

وخطورة هذا الرأى أنه من ناحية يدعى وجود جنسين متميزين أو عصبيتين مختلفتين ، ومن ناحية أخرى يريد أن يخلق شعورا عند بعض البربر بانتمائهم إلى أصل أوربى حتى يقتل عندهم الإحساس بالشخصية المستقلة ، ويوهمهم أن

---

(١) الزاوى : تاريخ الفتح العربى ص ١٧ .

(٢) عبدالمنعم عبدالعال : لهجة شمال المغرب ص ٢٢ .

(٣) حضارة العرب ص ٢٤٤ . وقد علل د. محمد عوض محمد فى كتابه : الشعوب والسلالات الإفريقية وجود الشقرة عند بعض السكان بوجود هجرات أوربية شمالية (ولكن فى وقت لاحق) ونزول أصحابها بديار المغرب (ص ٣٤٢ ، ٣٤٣) .

ارتباطهم بفرنسا وأوربا ارتباط قوى من قديم ، ولذا لا يوجد معنى لمقاومة الاستعمار الأوربى من أى نوع .

وشبيه بهذا الرأى ما حاوله رين Rinn من ادعاء انتماء البربر إلى أصول أوربية متعددة معتمدا على بعض المقارنات اللغوية اللفظية[١] .

٧- وهناك نظريات أخرى مثل القول بأنهم من الفرس ، أو من الهند ، أو من أخلاط شتى[٢] .

أصل كلمة بربر :

كما اختلف فى أصل البربر ، اختلف فى أصل الكلمة نفسها وأول من استعملها :

١- فقيل إن البربر سموا أنفسهم بذلك انتسابا إلى جدهم «بربر بن تملا» وقد عرفوا بهذا الاسم من قبل الفتح الإسلامى وقبل أن يعرفهم العرب[٣] .

٢- وقيل إن أول من سماهم بذلك أفريقس بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية وبنى المدن والأمصار . فحين سمع رطانتهم ولاحظ اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم . فسموا بالبربر[٤] .

---

(١) تاريخ الجزائر ١ / ٥١ .

(٢) المرجع السابق ١/ ٤٩ و ٥٠ ، الاستقصا ١/ ٦٠ .

(٣) تاريخ المغرب الكبير ١/ ٢٦ .

(٤) دائرة معرف البستانى ٥/ ٢٧٧ .

٣- ويروى بعضهم أن الكلمة يونانية الأصل وأنها مشتقة من لفظ «ڤرڤاروس» التى تعنى أصلا : اللفظ أو الصوت الذى يصدره الألثغ . ثم صار اليونانيون يطلقونها على كل من يتكلم بلغة تختلف عن لغتهم . ولذلك سموا إيطاليا «بربارياً» [١] .

٤- ويرى بعض آخر أنها مشتقة من لفظ لاتينى قديم هو Barbarus أى المتلعثم فى كلامه . ويظهر أن الرومان لم يستطيعوا فهم لغة البربر فأطلقوا على أصحابها هذا الاسم [٢] .

٥- ويذهب بعضهم إلى أنها مأخوذة من لفظ «ورورا» باللغة السنسكريتية ومعناه: «غريب» [٣] .

٦- ويقال إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان شمال إفريقية جميعا، وسبب التسمية عدم فهم العرب للغتهم [٤] . ولكن يعترض محمد دبوز على هذا الرأى قائلا : «ولو صح هذا لسموا كل جنس لايفهمون لغته بربرا كأقباط مصر ولغتهم حامية كلغة البربر» [٥] .

---

(١) المرجع السابق ٢٧٦/٥ .

(٢) ملامح المغرب العربى ص ٥٥ .

(٣) البستانى فى دائرة معارفه ٢٧٧/٥ .

(٤) ملامح المغرب العربى ص ٥٥ ، وتاريخ المغرب الكبير ٢٦/١.

(٥) السابق ٢٦/١ .

obeikandl.com

أصل اللغة البربرية[١] :

أما الحديث عن أصل اللغة البربرية ، وإلى أى المجموعات اللغوية تنتمى فحديث طويل متشعب ، وتتباين فيه وجهات النظر بشكل ملحوظ ، وذلك لأنه يعالج لغة ذات تاريخ طويل لايرجع فقط إلى عهد اليونان أو الرومان ولكن إلى فترة ما قبل التاريخ[٢] .

والخلاف فى أصل اللغة البربرية لايخرج فى مجموعه عن النظريات الأربع الآتية :

١- أنها تنتمى إلى مجموعة اللغات السامية .

٢- أنها تنتمى إلى مجموعة اللغات الحامية .

٣- أما النظرية الثالثة فهى تجمع الرأيين السابقين وتضع المجموعتين فى مجموعة واحدة .

٤- وأما النظرية الرابعة فتخرج البربرية عن المجموعة السامية أو الحامية وتعتبرها أخلاطا أو مزيجا من لغات متعددة معظمها أوربى .

وإليكم الحديث عن كل نظرية بالقدر الذى يسمح به المقام :

---

(١) هل يصح اعتبار البربرية لغة واحدة ذات لهجات متعددة ، أو هى مجموعة من اللغات المختلفة ؟ تختلف نظرة اللغويين فى ذلك ، فمنهم من يعتبر البربرية لغة ، ويعد الخلاف بين متكلميها - وإن كان كبيرا - خلافا لهجيا ، ومن هؤلاء O. Bates الذى يقول عن البربرية : «والتفاوت كبير بين اللهجات وإن وجد تشابه أساسى فى النحو والمفردات» (ص ٧٣ The Eastern Libyans) كذلك اعتبرها لغةً مؤلفا Libyan Notes (ص ١٠) . ومنهم من يعتبرون البربرية مجموعة من اللغات ولذلك أطلقوا عليها اسم «اللغات البربرية» ومن هؤلاء Applegate فى بحثه The Shelha (ص ٣٢٤) .

(٢) The Eastern Libyans ص ٧٩ .

١- أما أصحاب النظرية الأولى فهم أولئك الذين يرون أن سكان الشمال الإفريقى القدامى يرجعون إلى أصل سامى وأنهم نزحوا إما من اليمن بعد انفجار سد مأرب أو من العراق بعد حدوث طوفان مدمر [١] . ويؤيد أصحاب هذه النظرية دعواهم بما يوجد من تشابه بين البربرية ومجموعة اللغات السامية مثل تلك الأصوات التى نجدها فى البربرية وقلما نجدها فى غير اللغات السامية كالحاء والضاد والغين [٢] .

وهذه النظرية - فى الحقيقة - تبدو ضعيفة ، ولا تقوى على الصمود أمام ما وجه إليها من اعترضات كما سيأتى عند عرض النظرية الثانية .

٢- أما النظرية الثانية فتبدو أقوى النظريات وأقربها إلى العلمية . وقد توصل إليها أصحابها بعد إجراء مقارنات متعددة بين اللغة البربرية واللغات السامية من ناحية ، وبينها وبين الحامية من ناحية أخرى .

وقد كان البروفسر Francis Newman (عام ١٨٣٦) أول من أنكر الأصل السامى للغة البربرية [٣] ، كما أن من أصحابها عالم الساميات القدير Renan الذى يقول : إنه رغم وجود شبه بين البربرية وبعض الساميات فهى مختلفة عنها ، ولا يوجد تشابه بين أى لهجة بربرية ولغة سامية مثل التشابه الموجود بين لغتين ساميتين [٤] . ويقول Sergi فى كتابه المشهور The Mediterranean Race :

---

(١) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ٢٧ ، والأدب المغربى لابن تاويت وعفيفى ص ٢٦ .

(٢) حسن سليمان محمود ص ٢٨ ، وسعد زغلول تاريخ المغرب العربى ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) Libyan Notes ص ١٠ .

(٤) The Eastern Libyans ص ٧٣ .

«اللغة البربرية حامية وهى قريبة الصلة بالمصرية وغيرها من الحاميات الشرقية» . ويقول : «ولا يمكن أن نقول إن الليبيين لم يكونوا حاميين وإنهم اكتسبوا اللغة الحامية من الغزاة ، لأنا نعلم أن المصريين لم يغزوا هذه البلاد . وإذا كان قد حدث هذا فقد كان محصورا فى بعض القبائل الشرقية ولفترة محدودة . حقا إن مصر قد أقامت علاقات تجارية مع القبائل الداخلية ، ولكن لم يكن لها سلطان سياسى عليها . وعلى هذا فاللسان البربرى هو اللسان الأصلى لهذا الفرع الحامى»[١] .

ويميل إلى هذا الرأى كذلك الأستاذ مبارك الميلى الذى يقول : «فأما اللغة فلا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء المصريين والنوبة والحبشة والصومال والهوصا ..»[٢] .

ويؤيده أيضا الدكتور يسرى الجوهرى فى كتابه السلالات البشرية إذ يقول: «الليبيون من الناحية اللغوية ينتمون إلى الحاميين كما أنهم من الناحية السلالية يشبهون جيرانهم المصريين وغيرهم من الشعوب التابعة للفرع الشرقى من الحاميين»[٣] .

أما المشابهات بين البربرية والمصرية القديمة - وهى أيضا حامية - فأهمها التشابه فى النظام الفعلى ، وفى نظام الجمع والضمائر . كما أن مقارنة المفردات فى اللغتين تثبت أن هناك قدرا مشتركا بينهما فى الكلمات البدائية[٤] .

---

(١) ص ٥٦ .

(٢) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ١/٥١ .

(٣) ص ٣٢٩ .

(٤) انظر ص ٨١ من The Eastern Libyans . وقد ضرب المؤلف أمثلة للكلمات البدائية المشتركة بين اللغتين فانظرها فى الصفحات ٨١ - ٨٣ .

ويعلق Oric Bates على ذلك بقوله : «وإن الوحدات المشتركة فى مفردات البربرية والمصرية ، والتشابه النحوى المثير يجعل من الممكن الاطمئنان إلى القول بوجودعلاقة قوية بينهما»[١] .

ويمكن دعم هذا الرأى كذلك بالاكتشافات الأثرية الحديثة للألفبائية البربرية التى يربطها العلماء بنظام هجائى مشترك يشمل كريت ومصر وكل الشمال الإفريقى وأسبانيا . وسنزيد هذه النقطة تفصيلا فيما بعد .

ولا ينكر أصحاب هذه النظرية وجود بعض مشابهات بين البربرية واللغات السامية ولكنهم يلفتون النظر إلى الحقائق الآتية :

أ- على الرغم مما لوحظ من وجود عدد مشترك من الجذور بين البربرية والساميات فإن الأغلبية العظمى من المفردات مستقلة [٢] .

ب- أن التشابه بين البربرية وبعض اللغات السامية مرجعه التشابه بيه المجموعتين الحامية والسامية ، فقد ثبت بالمقارنة وجود تقارب بينهما فى بعض الخصائص الصوتية ، وفى خاصية الأصل الثنائى أو الثلاثى ، وفى نظام الضمائر وفى بعض طرق الاشتقاق [٣] .

جـ- بعض هذا التشابه مرجعه أسباب سياسية مثل الغزو والفتوحات القديمة [٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢) Libyan Notes ص ١٠ .

(٣) Barton فى : Semitic and Hamitic Origins ص ٢١ - ٢٣ . وبعد أن عدد المؤلف أحد عشر وجه شبه (ص ١٧ - ٢٥) قال : «الفحص اللغوى يثبت وجود علاقة بين المجموعتين الحامية والسامية» (ص ٢٥) .

(٤) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٥٨ .

د- اعترف فريق من المؤرخين أن بعض القبائل البربرية التى وجدت أثناء الفتح ذات أصل عربى ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات الأصل اليمنى [١] . ومعنى هذا أنه وجد تلاق بين الحامية والسامية ، أو بين البربرية وعربية هاتين القبيلتين فى فترة ما من فترات التاريخ سمح بنوع من التبادل ، أو التأثير والتأثر .

٣- وأما النظرية الثالثة فيريح أصحابها أنفسهم من هذا الصراع بين أنصار الأصل الحامى أو الأصل السامى ، ويربطون المجموعتين برباط واحد ، أو أصل مشترك سماه بعضهم «المجموعة الأفرو آسيوية» وبعضهم «المجموعة الحامية السامية» . ويعتمد هؤلاء وأولئك فى ربطهم المجموعتين فى مجموعة واحدة على النقاط الآتية :

(أ) اللغات الحامية تختلف عن سائر لغات إفريقية .

(ب) اللغات الحامية تبدو مشابهة بقدر كبير للغات السامية مما يسمح بالقول بوجود قرابة لغوية قوية بينهما .

(جـ) أن الساميات تبدو وكأنها تطور عن الحاميات . إنها صورة خاصة للحاميات تطورت فيها اللغة إلى أن تكون إعرابية [٢] .

(د) ما نادى به عالم المصريات القدير Adolf Erman من أن ما يسمى بالجنس الحامى ماهو إلا سامى هاجر إلى إفريقية من جنوب الجزيرة العربية ثم اختلط بدماء إفريقية متنوعة [٣] .

---

(١) لهجة شمال المغرب ص ٣٣ .

(٢) A Study of Race in the Ancient Near East ص ٥٥ .

(٣) Semitic and Hamitic Origins ص ١٠ .

ومن أصحاب هذه النظرية جرينبرج الذى يعد من أقدر علماء اللغات فى العصر الحاضر . وقد نادى بنظريته هذه بعد أن قدم دراسة عن اللغات الإفريقية استغرقت السنوات من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٥ ، وانتهى إلى القول بأن لغة البربر واللغات السامية تمتّ كلها إلى أصل واحد سماه «المجموعة الأفرو آسيوية» . كما أن من أصحابها مارسيل كوهين الذى نادى بأن اللغات الحامية ليست - فى حد ذاتها - وحدة تقف موقف التقابل من اللغات السامية ، بل إنهما يكونان أسرة أكبر هى «المجموعة الحامية السامية»(١) .

٤- وأما النظرية الرابعة فهى أضعف النظريات وأبعدها عن الواقع . وقد نادى بها فريقان من العلماء ، أحدهما يضم أولئك الذين عجزوا عن رد اللغة البربرية إلى مجموعة معينة ، ومنهم علماء عاشوا فى الفترة التى سبقت الدراسة الجادة لهذه اللغة ومقارنتها بغيرها من اللغات ليمكن التنبؤ بأصلها . أما الفريق الآخر فيضم بعض الساسة المحترفين الذين يزيفون الحقائق العلمية لخدمة أغراضهم الاستعمارية .

فمن الفريق الأول Joseph Applegate الذى يعتبر اللغات البربرية تشكل مجموعة لغوية مستقلة تسمى «مجموعة اللغات البربرية» التى تشمل لغات مثل الـ Shilha والـ Rif والـ Touareg والـ Kabyle وغيرها (٢) . ومنهم Peyronnet الذى يرى أن البربرية لغة غريبة مجهولة الأصل(٣) .

---

(١) انظر : Encyclopaedia Britannica مادة African Languages ، الشعوب والسلالات الإفريقية لمحمد عوض ص ٣٣٨ ، إفريقية الأرض والناس لمحمد عبدالفتاح ص ١٤٠ - ١٤٢ ، أزمة المغرب الأقصى لروم لاندو ص ٩٦ .

(٢) انظر : The Middle East Journal الجزء الثانى العدد الثالث سنة ١٩٥٧ ص ٣٢٤ .

(٣) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ٨٥/١ .

أما الفريق الثانى فيضم عالمين كبيرين أحدهما M. Olivier الذى نشر بحثا حاول فيه أن يظهر القرابة بين الجنور البربرية والجنور الهند أوربية . ويعلق مؤلفا كتاب Libyan Notes على ذلك بقولهما : «ولكن الأمثلة التى ذكرها أبعد عن أن تقنعنا بما ذكر . بالإضافة إلى أن علم اللغة الآن قد تقدم إلى الأمام وخلف وراءه مرحلة الزعم بأن وجود تشابه قريب أو بعيد بين المفردات يمكن أن يؤدى إلى القول بوجود علاقة بين لغات لاتتفق فى تركيبات صيغها»[١] . وأما الآخر فهو Rinn الذى ناظر بين ألفاظ بربرية وأخرى هندية أوربية ، وانتهى إلى القول بأن مفردات اللغة البربرية ترجع إلى أصول إيطالية قديمة وألمانية وإنجليزية وسويدية ونرويجية . بل لم يكتف بذلك فطار إلى روسيا وأتانا منها بمفردات أتعب نفسه فى تقريبها من مفردات بربرية . ويعقب الأستاذ مبارك الميلى على هذا بقوله : «لقد كتب بقلم سياسى لا بقلم علمى . يريد أن يمزق البربر ويوزعهم على أمم أوربية لكى يسهل على البلعوم الأوربى ابتلاعهم»[٢] .

خصائص اللغة البربرية :

من خصائص اللغة البربرية ما يأتى :

١- الابتداء بالساكن وتتابع السواكن مثل : تْزالّيتْ بمعنى الصلاة ، وتْمارْتْ بمعنى الحية ، وتْفُويْتْ بمعنى الشمس ، وتْفاوْتْ بمعنى النار .

٢- قد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا .

---

(١) ص ١٠ .

(٢) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ١/٥٢ و ٥٣ .

٣- تاء التأنيث فيها تكون فى أول الاسم لا فى آخره . وقد يختم الاسم بتاء كذلك، لكن لابد من تاء فى أوله ، كقولهم : تامَطوتْ بمعنى امرأة ، وتامْرُوت بمعنى بندقية .

٤- يكثر بدء أسمائها بالهمزة مثل أجَنَّا بمعنى السماء .

٥- علامة التثنية فيها كلمة وليست حرفا ، فتثنية إتْرِى (النجم) : سَنْ إيتْران ومعناها : اثنان من النجوم . (سن = اثنان و إيتران = جمع إتْرِى) .

٦- الماضى يبتدىء بالياء ، والمضارع والأمر بالهمزة . وقد يكون الأخير بدون همزة كما فى العربية . ومثاله سُو بمعنى اشرب[1] . وفى بعض اللهجات يضاف للماضى سابقة هى tsou أو tsoua .

٧- عدم وجود أدوات . أما السابقة «أل» الموجودة فى البربرية الحديثة فمأخوذة من العربية .

٨- وجود علامة للمذكر وهى البدء بـ «أ» أو «إ» .

٩- تشكيل المستقبل عن طريق إضافة السابقة Ad (d = ذ) للماضى .

١٠- الضمائر نوعان متصلة كلواحق بالأسماء أو الحروف أو الأفعال ، ومستقلة باعتبار كل منها فاعلا لفعل .

١١- هناك فرق فى الصيغة بين الضمير المتصل المباشر وغير المباشر .

١٢- الأفعال التى تنصب مفعولين تشكل عن طريق السابقة S للجذر[2] .

---

(١) دبوز ٤٩/١ وأمثلته مأخوذة من البربرية الميزابية وهى بربرية موجودة فى الصحراء بجنوب الجزائر .

(٢) Libyan Notes ص ١٣ .

١٣- الجمع يشكل عن طريق تغيير داخلى أو تغيير خارجى .

١٤- تتبع الصفات الأسماء فى التذكير والتأنيث وغيره .

١٥- يقع الفعل فى أول الجملة ثم الفاعل ثم المكملات[١] .

الخط البربرى :

ظل العلماء حينا من الدهر يظنون أن البربرية لغة منطوقة لامكتوبة حتى ظهر فساد هذا الرأى بعد الكشوف الحديثة التى تمت فى مناطق متعددة من الشمال الإفريقى موطن البربر القدماء .

ويقول مؤلفا Libyan Notes : «إن الاكتشاف الذى انتهت إليه بحوث الأستاذ A.J. Evans والبروفسور F. Petrie ، وهو أن الألفبائية التى ظهرت فى كثير من النقوش التى عثر عليها فى كل الشمال الإفريقى - تشكل جزءا من نظام واحد مشترك بين كريت ومصر من ناحية وأسبانيا وغيرها من ناحية أخرى - هذا الاكتشاف يعد واحدا من أهم الاكتشافات الحديثة حول الآثار قبل التاريخية» . ويقولان أيضا : «وقد أثارت هذه النقوش اهتمام الباحثين لمدة تزيد على الخمسين سنة ، وقد وجدت فى مسافات تمتد إلى خليج سيناء شرقا وجزر الكنارى غربا والصحراء جنوبا»[٢] .

وإذا كان هذا الكتاب قد طبع عام ١٩٠١ ويتحدث عن الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر ، فإن البحوث التنقيبية لم تتوقف فى القرن العشرين بل

---

(١) The Eastern Libyans ص ٧٤ .

(٢) ص ٧٢ .

زادت وبخاصة منذ عام ١٩٤٦ . يقول Goodchild : «إن أعمال التنقيب التى تمت داخل منطقة طرابلس خلال السنوات الخمسين الأخيرة وبخاصة منذ سنة ١٩٤٦ قد أدت إلى اكتشاف عدد كبير من النقوش التى تمدنا بمعلومات هامة عن لغة الليبيين وحياتهم خلال العصر الرومانى»[١] . ولكن المؤلف مع ذلك يعترف بأن النقوش المكتشفة ما تزال قليلة ، وأنها لا تكفى الباحثين اللغويين لكى يصلوا إلى نتائج لغوية محققة[٢] .

والنقوش التى عثر عليها تشكل ثلاث مجموعات رئيسية :

أما المجموعة الأولى فقد كتبت باللغة البربرية ولكن فى حروف لاتينية . وقد أطلق الباحثون عليها اسم Latino-Libyan . وقد لوحظ أن كاتب هذه النقوش كان يستخدم إلى جانب الرموز اللاتينية رموزا غير لاتينية للتعبير عن الأصوات التى لاتوجد لها رموز فى تلك اللغة[٣] . ومن أمثلة هذه النقوش تلك التى ذكرها Goodchild وهى :

---

(١) The Latino-Libyan Inscriptions ص ١٣٥ .

(٢) المرجع ص ١٤٣ .

(٣) المرجع ص ١٣٥ ، Inscriptions in the Libyan Alphabet ص ١١٢ ، ١١٣ .

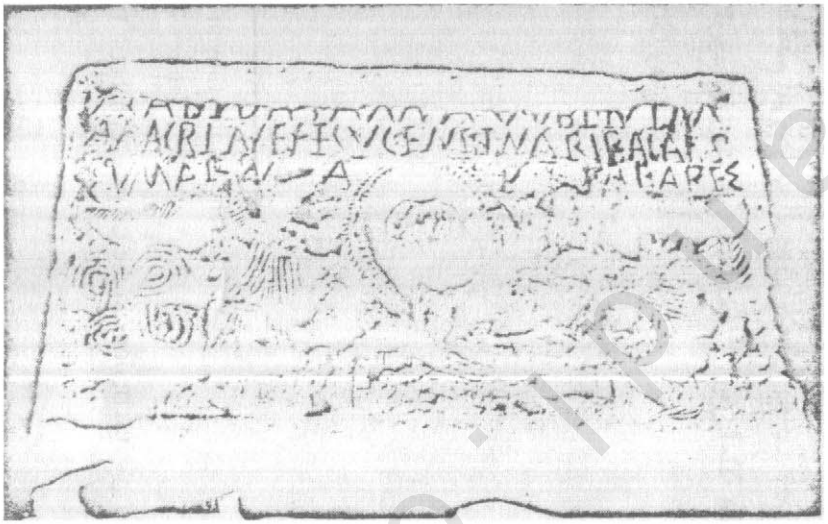

a. Inscription from Romano-Libyan fortified farmhouse at Seemech (now in Leptis Magna Museum)

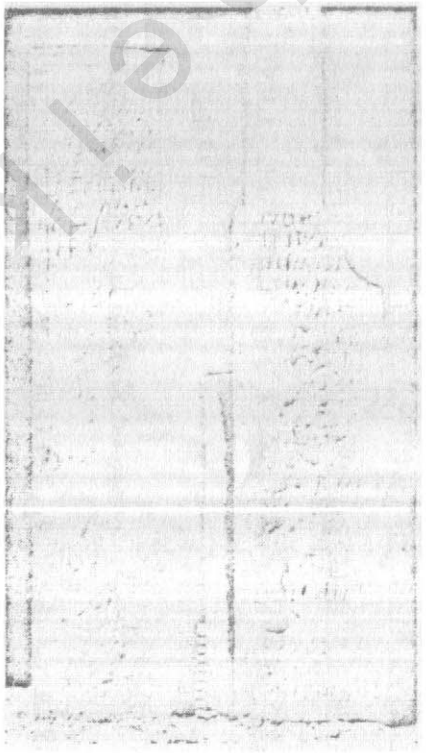

b. Inscribed stelae from Romano-Libyan necropolis at Bir ed-Dreder (now in Tripoli Museum) (*Photograph: Antiquities Dept. Tripolitania*)

226

www.jstor.org

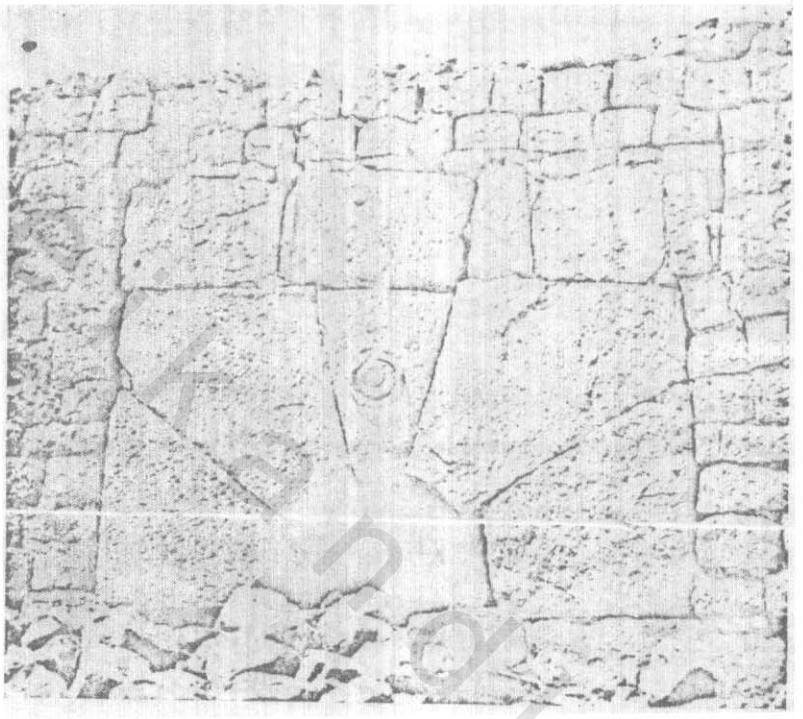

a. Doorway of Romano-Libyan fortified farm-house at El-Ureia, showing inscription *in situ*

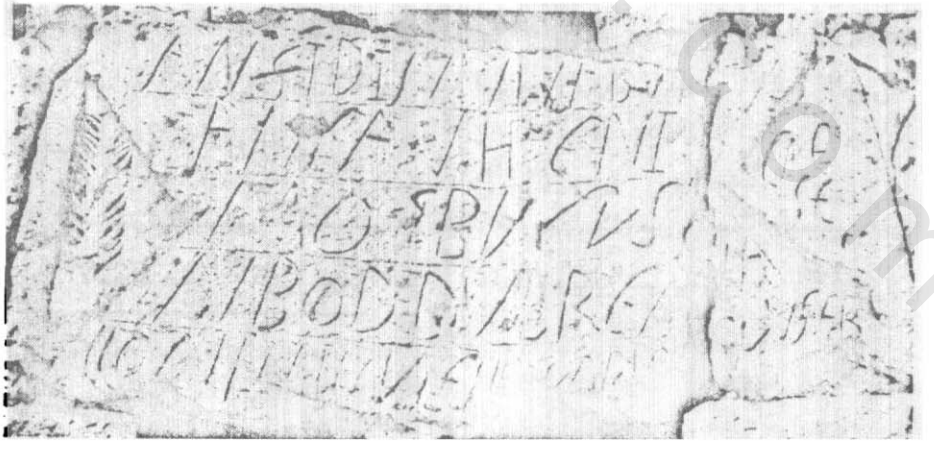

b. Inscription at El-Ureia

وأما المجموعة الثانية فقد كتبت بخط غير لاتينى ، ومن بينها نقوش تم العثور عليها بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٧ فى غرزة . وتبدو أبجديتها صورة من صور الأبجدية الليبية التى سبق العثور عليها فى تونس والجزائر والمغرب[١] . وتعد نصوص غرزة ذات أهمية خاصة للكتابة الليبية لسببين : أولهما أنها يمكن تأريخها بالقرن الرابع الميلادى وما تلاه ، فهى تسد الثغرة بين الخط الليبى القديم والحديث . وثانيهما أن معظمها قد وجد على مبان سكنية وأدوات منزلية فى أماكن مستقرة وليست من نوع النقوش الجنائزية أو المرسومة على القبور[٢] .

وأما المجموعة الثالثة فتمثل عددا من النقوش المزدوجة اللغة، بعضها فينيقى – ليبى ، وبعضها لاتينى – ليبى . وبمساعدة هذه النصوص تمكن الباحثون الفرنسيون من عرفة القيمة الصوتية لاثنين وعشرين رمزا مستعملا ، ومن قراءة عدد كبير من أسماء الأعلام الليبية ، وعدد قليل من الكلمات العادية[٣] .

ويبدو أنه كان هناك أشكال متعددة أو ألفباءات متنوعة لكتابة المجموعة الثانية ، أهمها الألفباء الليبية والألفباء الطوارقية[٤] . كما يبدو أن الألفباء الواحدة قد تعرضت لأنواع من التطوير والتعديل من آن لآخر مما أدى إلى تعدد الصور التى قدمها لنا العلماء للخط البربرى . وعلى هذا يكون عندنا ثلاثة نماذج – على الأقل– يصور أحدها مراحل تطور الخط البربرى ، ويمثل ثانيها الخط الليبى ، ويمثل ثالثها الخط الطوارقى .

أما مراحل تطور الخط البربرى فقد شرحها كل من الأستاذ محمد على دبوز والأستاذ مبارك الميلى . ومن مجموع ما قالاه يتبين ما يأتى :

---

(١) Inscriptions in the Libyan Alphabet ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) المرجع ص ١١٣ .

(٣) المرجع ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٤) وجد كذلك الخط الجرامنتى الذى كان يكتبه الجرامنت الذين استوطنوا جنوب ليبيا . ومن الحفريات القليلة التى عثر عليها تبين أن يختلف كلية عن التيفيناغ (جرمة فى عصر ازدهارها ص ١٦٤) .

أ- أن الحروف البربرية فى القديم كانت تركب من عشرة حروف يسمونها «تيفيناغ» ، ومعناها الحروف المنزلة من عند الإله ، لأنهم كانوا يعتقدون أنها ليست من وضع البشر . وصورة هذه الحروف كما يلى (مفسرة بما يوافقها أو يقاربها من الحروف العربية) :

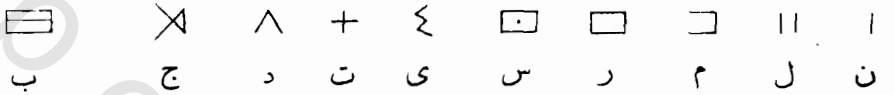

ا ن ل م ر س ى ت د ج ب

ب- وأضيف إليها خمسة أشكال تسمى «تيدباكين» ومعناها الدليل على العمل والتوسع . ويعتقدون أنها من وضع البشر . ثم أضيفت حروف أخرى فى وقت لاحق مثل :

ز بين "ز" و"س" ث ش

جـ- وأضيف كذلك أشكال أخرى وعلامات للحركات مثل :

. وتدل - فى الأكثر - على الضمة .

: وتدل - فى الغالب - على واو المد .

حتى صار مجموع حروفهم ثلاثة وعشرين حرفا .

د- ويقال كذلك إن الملك مسينيسا Massinissa (ولد سنة ٢٣٨ ق م) مؤسس مملكة نوميديا (الجزائر) قد وجه عنايته للخط البربرى ، ورقاه ، وزاد فى حروفه حتى استقر على النحو الذى نجده اليوم [١]

وأما الألفباء الليبية فأشمل صورة لها تلك التى قدمها الأستاذ Faidherbe والتى تحتوى على ٢٧ حرفا ، وهى [٢] .

---

(١) انظر دبوز ٦٤/١ ، ٦٥ ، ١٤٩ والميلى ٨٧/١، ٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية - بربر ص ٥٠٢.

(٢) Libyan Notes ص ٧٣ .

Libyan Alphabet

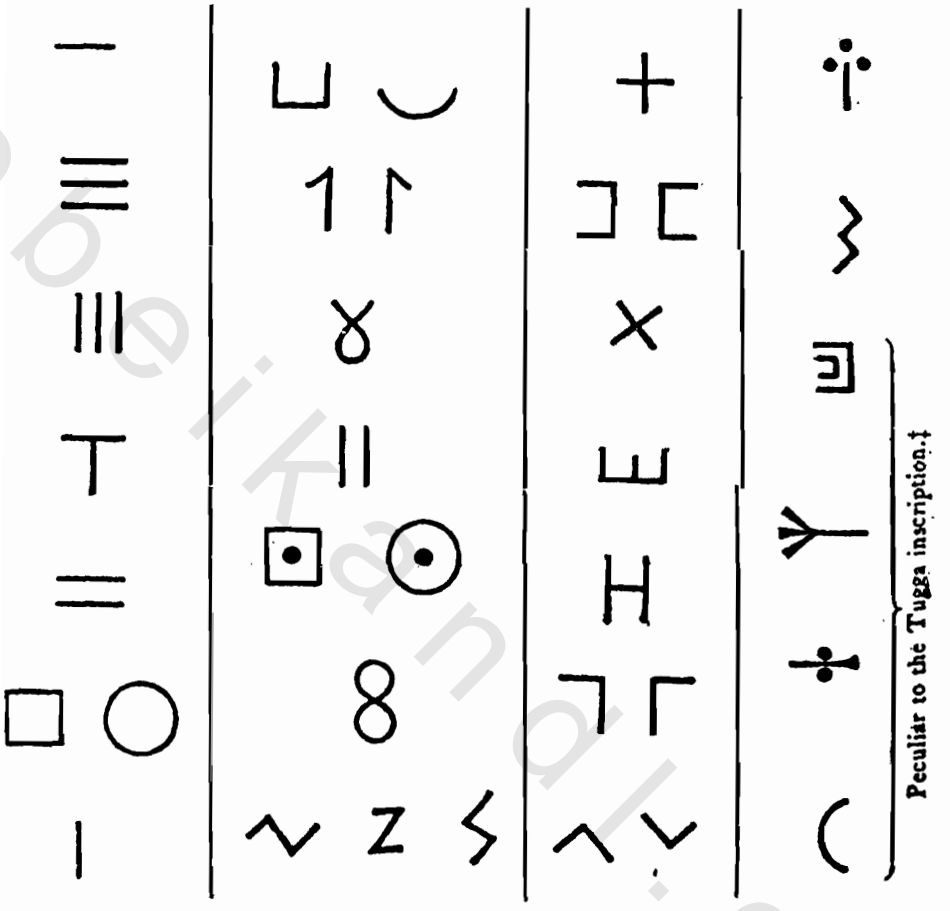

أما الأبجدية الطوارقية أو الـ Tifinagh قد اكتشفها الدكتور Oudney الفرنسى سنة ١٨٢٢ ، ووجد رموزها فى منطقة مرزق Mourzouk فى فزان ووصفها بقوله : «توجد الرموز الطوارقية على كل حجر تقريبا . ولا يهم أن تكون الحروف مكتوبة من اليمين إلى اليسار أو العكس أو عموديا»[١]. وقد قدم Oudney لنا ١٩ حرفا فقط ، ولذا فقائمته تنقص عن تلك التى قدمها العالم Hanoteau والتى هى :[٢]

---

(١) Libyan Notes ص ٧٤ . وقد كان هذا فى القديم ثم تأثر البربر بالعرب بعد الإسلام فصاروا يلتزمون اتجاها فى الكتابة هو الاتجاه العربى من اليمين إلى اليسار (دبوز ٦٧/١) .

(٢) Libyan Notes ص ٧٤ ، إفريقية الأرض والناس ص ٥٩ .

Tifinagh Alphabet

Phonetic Value (French).		Phonetic Value (French).		Phonetic Value (French).		Phonetic Value (French).	
a, i, ou		s		k'		ق	Arabe
b		g		r grasseyé		غ	Arabe
t		g doux		ch		ش	Arabe
d		f		h		ه	Arabe
j	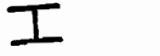	l		dh t'		ظ ط ض	Arabe
z		m		kh		خ	Arabe
z doux		n		ou long		ع	Arabe
r		k		i long		ك	Arabe

وبعض هذه الحروف تتجمع فى تشكيلات هكذا :

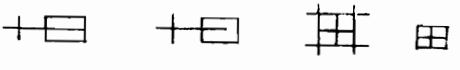

ر ت ز ت س ت ب ت

ويلاحظ أن الأبجديتين الليبية والطوارقية متقاربتان فيما عدا ما أدخلته الطوارقية من تعديلات تتمثل فى وضع نقط بدل الخطوط فى الحروف رقم ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ [١] (لاحظ العد من جهة اليسار) .

وهناك نظريات متعددة فى أصل الخط البربرى . فبعضهم يرده إلى المصريين ، وبعضهم إلى اليونانيين ، وبعضهم إلى الوندال ، وبعضهم إلى السبئيين، وبعضهم إلى الأثيوبيين . كما أن بعضهم يربطه بالصفوية أو الثمودية المنسوبتين إلى شمالى الجزيرة العربية كما فعل Littmann [٢] .

ولكن الذى يبدو صحيحا أن الخط البربرى قد بدأ البربر بوضعه أولا [٣] ، ثم عدلوا فيه أو زادوا عليه حروفا استفادوها من كتابات شعوب أخرى مثل المصرية القديمة والفينيقية وخط المسند القديم لأهل شمال الجزيرة العربية فى فلسطين والشام والعراق . فقد صرح Evans و Flinders بأن بعض الرموز الخطية (أى المؤلفة من خطوط) التى وجدت على الأوانى الفخارية المصرية القديمة جدا ، تتطابق مع تلك الموجودة فى الرموز الليبية والطوارقية [٤] . ومن ناحية أخرى أثبت Halevy (فى أواخر القرن التاسع عشر) أن بعضا منها مأخوذ من الفينيقية التى وجدت فى شمال إفريقية . وقد وجد Halevy ستة رموز من بين الرموز الليبية تتماثل فى شكلها وفى قيمتها الصوتية مع الرموز الفينيقية [٥] . وقد

---

(١) Libyan Notes ص ٧٥ . وانظر كذلك The Mediterranean Race ص ٥٣ .

(٢) The Eastern Libyans ص ٨٥ . وانظر دائرة المعارف الإسلامية مادة بربر .

(٣) دبوز ٦٤/١ .

(٤) Libyan Notes ص ٧٥ ، وانظر دبوز ٦٤/١ .

(٥) The eastern Libyans ص ٨٥ ، ٨٦ . وانظر دبوز ٦٤/١ .

مثل الأستاذ دبوز لهذا التماثل برمز التاء فى البربرية والفينيقية وهو واحد ويكتب هكذا + ورمز الدال الذى يكتب فى البربرية هكذا ٨ وفى الفينيقية هكذا Δ ، وغير ذلك[١] . كذلك صرح الأستاذ دبوز أن التشابه بين حروف المسند القديمة وحروف البربر لايمكن إنكاره ، ومثل لذلك برموز الزاى والباء والتاء التى تتشابه فى كلتا الكتابتين[٢] .

وهنا حقائق أخرى تتعلق بالخط البربرى تحتاج إلى التنبيه عليها وهى :

١- أن حروف العربية لها ما يماثلها فى البربرية ما عدا العين والحروف المعجمة الثاء والذال والظاء[٣] .

٢- البربر لايعجمون حروفهم .

٣- العين تكتب غينا فى البربرية ، وتقرأ عينا أو غينا بحسب السياق . وقد وجدت عندهم العين نتيجة اختلاطهم بالفينيقيين والعرب ، ولذا لم يفردوا لها رمزا مستقلا[٤] .

٤- يقول Rinn : «المظنون أن اللاتينيين قد أخذوا حروفهم عن البربر لأنهم يسمون حروفهم الهجائية «المنتا» وحروف ل م ن هى الأولى فى الحروف البربرية[٥] .

٥- أنه لاصحة لما يقال من أن الطوارق هم الوحيدون - دون جميع البربر - الذى لهم كتابة خاصة[٦] . فقد ثبت مما سبق أن الكتابة كانت موجودة عند البربر

---

(١) ٦٦/١ .

(٢) المرجع والصفحة .

(٣) دبوز ٦٤/١ .

(٤) المرجع والصفحة .

(٥) الميلى ٨٨/١ .

(٦) الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٣٥٣ .

بعامة ، كما يؤيد ذلك النقوش القديمة التى وجدت فى مساحات واسعة ومناطق لم يسكنها الطوارق مطلقا [١] .

٦- الأبجديات البربرية تعد من النوع الألفبائى وليس المقطعى . ولكن بسبب الاختصارات فى استعماله ، ولغياب رموز العلل (فى العادة) فمن الممكن اعتبارها أبجدية شبه مقطعية [٢] .

٧- أن الخط الطوارقى ما يزال مستعملا حتى الآن بين الطوارق ، ولكن فى مجالات ضيقة ، وبصورة تختلف قليلا أو كثيرا عن صورته القديمة مما يجعلهم فى كثير من الأحيان عاجزين عن قراءة نقوش أجدادهم [٣] .

٨- أنه لا مجال للشك فى بربرية النقوش التى عثر عليها ، لأن تردد الأسماء البربرية فى هذه النقوش يدل على أن هذه الكتابة كانت خاصة بالمواطنين الأصليين وليست بأى مستوطنين آخرين [٤] .

٩- أن بعض النقوش التى عثر عليها فى الجزائر وتونس محفوظة أصولها فى المتحف البريطانى [٥] .

١٠- يصرح الأستاذ Oric Bates أنه لم يعثر على نقوش للخط البربرى أقدم من القرن الرابع قبل الميلاد [٦] .

---

(١) Race of Africa ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ .

(٣) الصحراء الكبرى ص ١٠٣ ، Race of Africa ص ٩٦ .

(٤) Libyan Notes ص ٧٣ .

(٥) المرجع ص ٧٢ .

(٦) The Eastern Libyans ص ٨٥ .

ديانات البربر قبل الإسلام :

كان معظم البربر – حتى بعد دخول اليهودية والمسيحية البلاد – يدينون بالوثنية أو المجوسية ، وكان بعضهم يعبد إلهة معينة ، وبعضهم يعبد الشمس ، وبعضهم يعبد القمر [١] .

وقد بدأ دخول الدين اليهودى بلاد المغرب نتيجة لهجرات يهودية تمت ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد . وقد نزلت هجراتهم الأولى على الفينيقيين فى تونس بحكم الصلات الجنسية واللغوية [٢] ، وسجل التاريخ لهم ثورات مبكرة منذ استوطنوا بلاد المغرب وقعت إحداها عام ١١٥ م فى برقة ، وكانت ضد الحكم الرومانى ، وأعقبها اتجاههم نحو الجنوب وتوزعهم فى كل أجزاء الشمالى الإفريقى [٣] .

ويبدو أن اليهود قد حققوا لأنفسهم – رغم قلتهم النسبية [٤] . – نفوذا كبيرا فى المنطقة استمر حتى مجىء الإسلام . «ففى عام ٦٨٨ م تمكن الجراوة Djeraoua فى جبل أوراس الذين اعتنقوا اليهودية ، ونصبوا امرأة منهم تدعى كاهنة قائدة لهم – تمكنوا من مطاردة العرب بقيادة حسان حتى خليج قابس ثم

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ص ٤٥ ودبوز ٤٠٥/١ و Libyan Notes ص ٩ وقادة فتح المغرب العربى ١٩/١ وتاريخ الفتح العربى فى ليبيا للزاوى ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) السلالات البشرية ص ٣٣١ وملامح المغرب العربى ص ٥٩ .

(٣) The Eastern Libyans ص ٢٠٨ والممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٤) قدر Sir Johnston عدد اليهود وقت الفتح بحوالى ١٠٠ ألف والمسيحيين بحوالى ٣٠٠ ألف والبربر بعدة ملايين (A History of the Colonization of Africa ص ٦١) . ويفهم من هذا أنه لم يعتبر المسيحيين واليهود من سكان البلاد الأصليين الذين سماهم بالبربر . وقد صرح محمد سليمان أيوب فى بحثه بعنوان «جرمة فى عصر ازدهارها» بأن «أكثر الذين اعتنقوا المسيحية من سكان المدن أى من أبناء الإغريق والفينيقيين والرومان بينما ظل أغلب البربر فى ليبيا على وثنيتهم» (ص ١٧٣) .

تتبعوهم حتى طرابلس»[١] . ويحدثنا Blake فى بحث له أنه قد عثر قرب مصراته على أحجار قبور نقشت عليها كتابة عبرية ترجع إلى عام ١١٤٢ م مما يدل على وجود مجتمع يهودى إذ ذاك[٢] .

أما الدين المسيحى فقد وصل إلى المغرب فى القرن الثانى الميلادى على أيدى رهبان أتوا من مصر[٣] ، وصارت المسيحية الدين الرسمى للدولة الرومانية منذ ارتقى قسطنطين على عرش روما سنة ٣١٢ م فارتبطت المسيحية فى نظر البربر منذ ذلك الحين بالرومان فكرهوها كما كانوا يكرهونهم ، وأدى ذلك إلى مخالفتهم واعتناق البربر للمذهب الدوناتى المسيحى وهو مخالف للمذهب الأرثوذكسى الكاثوليكى الذى كان عليه الرومان . وقد أدى هذا الخلاف المذهبى إلى نشوب معارك طاحنة بين البربر والرومان[٤] . ويبدو أنه – إلى جانب المذهبين السابقين – كان يوجد بعض المسيحيين الذين يدينون بالمذهب اليعقوبى السائد فى مصر ، فإن المراجع العربية تتحدث عن مناطق من ليبيا أهلها أقباط[٥] .

ونعود إلى الصراع المذهبى فنقول إن المذهب الدوناتى نشأ فى أوائل القرن الرابع الميلادى فى شمالى أوراس الذى كان يغلى بمقت الرومان . وقد أنشأه راهبان كان كل منهما يسمى «دونتوس» فسمى بالمذهب الدونتوسى أو الدوناتى . وكان هذا المذهب يرمى إلى غايات سياسية مثل تحرير المغرب من أيدى الرومان ورفع لواء المسيحية .

---

(١) الصحراء الكبرى ص ٧٢ .

(٢) Misurata ص ١١ .

(٣) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ٩٤ . ولكن يرى بعضهم أن البربر أخذوا دين المسيحية عن الروم لأنهم كانوا مغلوبين لهم (انظر : شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربى ص ١٩) .

(٤) دبوز ١/٤٠٦ .

(٥) تاريخ ليبيا لإحسان عباس ص ١٤

وما كاد القرن الرابع ينتصف حتى كان جمهور البربر المسيحيين فى المغرب دنتوسيين ، وحتى أقضت قلاقل الدنتوسيين مضاجع الرومان الحكام . وقد بدأت المتاعب بثورة الدنتوسيين ضد الكنيسة وروما . وفى ثورتهم ضد الامبراطور تعاونوا مع جماعة الدوّارين Circumcelliones ، وهى فئة متعصبة دأبت على سلب حوافّ الصحراء . ووكل أمر القضاء على الفوضى وإعادة تأسيس حكم الدولة إلى الكونت بونيفاس ولكنه أعلن الثورة على روما واستعان بالوندال . وفى عام ٤٢٩ م اندفع الوندال بنسائهم وأطفالهم إلى إفريقيا من أسبانيا وكانوا نحو ثمانين ألفا بينهم نحو عشرين ألف مقاتل ، وحكموا البلاد ، فشعر بونيفاس بخطئه. وانضم الدنتوسيون إلى الوندال لما كان يربطهما من كراهية للكنيسة الكاثوليكية . وفى سنة ٥٣٣ قاد بلزاريوس جيشا بيزنطيا . وكما حدث للوندال قبله رحب الناس به كمخلص لهم من الوندال . وفى خلال ثلاثة أشهر من وصول بلزاريوس كتب إلى الامبراطور جوستنيان أن أفريقية عادت رومانية . ولكن ما أن عاد إلى بيزنطة حتى أخذ البربر يزاولون ما اعتادوه من حب تقليدى للحرية . وصاحب ذلك إعلان جوستنيان «أن المذهب الكاثوليكى هو الدين الرسمى لبلاد المغرب» . وفى سنة ٥٣٥ انتزعت أملاك المخالفين من دنتوسيين ويهود وغيرهم ، وجردوا من حماية القانون ، وحجر عليهم العمل بمذهبهم ، وطردوا من مناصبهم ، وأخذت الكنيسة تراقب الولاة والحكام وأهل الوظائف وتتدخل فى جميع شئون الدولة السياسية والمالية والإدارية والحربية بالإضافة إلى فرض ضرائب باهظة على البربر وابتزاز أموالهم مما عمق الفجوة بين البربر وحكامهم من الرومان[١] .

---

(١) دبوز ١/٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٤٥ والممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ص ٧٧، ٧٨ ، ٧٩ . ولكن جاء فى بعض المراجع أن المذهب الدوناتى نسبة إلى صاحبه دونات Donat أحد الأساقفة الثائرين على الدولة الرومانية (انظر شيت : قادة فتح المغرب العربى ١/٤٠) .

ويبدو أن حركات الاضطهاد ضد أصحاب المذاهب الأخرى قد أفادت المسيحية إلى حد ما ، وأدت إلى نشرها فى الصحراء بعد أن كانت وقفا على المناطق الساحلية[١] ، فقد أصبحت الصحراء ملجأ لطريدى الاضطهاد الدينى . والقصص المثيرة المعروفة عن القديس بربتوا Perpetua وغيره من شهداء شمال إفريقيا لاتترك مجالا للشك فى أن آلافا من الرهبان الضعفاء قد فروا إلى الصحراء فى الجنوب[٢] . ويستدل بعضهم على انتقال المسيحية إلى الصحراء حيث يسكن الطوارق بوجود كلمات فى لغتهم ذات أصل مسيحى مثل اسم ميسى ومعناه إله وأنجلوس ومعناه ملاك ، وأسماء صموئيل وداود وشارل وغيرها من الأسماء التى تندر بين عرب إفريقية[٣] . ومن أجل هذا الصراع لم يجد الإسلام حين وفد على المنطقة دينا سماويا قويا ، ولم يكن عدد المسيحيين وقت الفتح الإسلامى كبيرا . «وعلى كل حال ليس من المحتمل أن تكون المسيحية – حتى إذا كانت قد وضعت أقدامها فى المنطقة – قد احتلت قلوب الناس»[٤] ، أو على حد تعبير باحث آخر : «وعند الفتح العربى كان هناك عدد من القبائل البربرية المسيحية ، ولكن المسيحية لم تكن متمكنة بينهم ولذا لاتوجد بقايا مسيحية قوية كما وجدت فى مصر»[٥] . ويقول باحث ثالث : «وقبل ظهور محمد كان من

---

(١) يقول أرنولد : «الولايات الرومانية فى أفريقية التى كان الأهالى المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيدا إلى الجنوب ، فإن الصحراء الكبرى تقف حاجزا منيعا فى هذا الاتجاه» (ص ١٤٤) . ومع ذلك فهناك من الباحثين من يقطع بأن بربر طرابلس – رغم أنهم ساحليون – لم يعتنقوا المسيحية مطلقا (Libyan Notes ص ٨) .

(٢) الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ص ٧٤ . ويقال إن الخلافات الدينية والسياسية وما تبعها من حروب واضطهادات (تم معظمها على يد حكومة الامبراطور جوستنيان) قد أفنت خمسة ملايين من الإفريقيين (أرنولد ص ١٤٦) .

(٣) الممالك الإسلامية فى غرب افريقيا ص ٧٤ .

(٤) Libyan Notes ص ٨ .

(٥) The Eastern Libyans ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

الواضح أن الكنيسة المسيحية قد عجزت عن أن تقنع هؤلاء الناس . إنها اختيرت كديانة رسمية للامبراطورية الرومانية ، وصارت ديانة أوروبية بدلا من سابق عهدها كديانة إفريقية أو آسيوية . ولذا فإنها أصبحت فى نظر الناس تمثل حكما استبداديا لايطاق[١] .

وهكذا كان الواقع الدينى فى المنطقة يعمل فى صالح الإسلام ، وقد أعانه على أن يثبت أركانه ويرفع لواءه بطريقة أدهشت العالم وأذهلته كما سنتحدث فى الفصل التالى .

---

(١) The Romance of Nearest East ص ١٧٨ .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى

انتشار الإسلام فى المنطقة

واجهت الجيوش العربية صعوبات جمة فى فتح الشمال الإفريقى ، وصادفت من الثورات والانقلابات والحركات الخارجية ما فاق نظيره فى البلدان المفتوحة الأخرى . ولا نريد أن ندخل فى تفصيلات حول الفتح الإسلامى ومراحله وما صادفه من صعوبات وأسباب ذلك ، فمجاله كتب التاريخ السياسى ، وإنما نريد أن نتتبع فى سرعة وإيجاز حركة الفتح الإسلامى ، ومعدل انتشار الإسلام فى المنطقة ، مبرزين – فقط – العوامل الرئيسية ، أو ما يسمى بنقاط التحول ، سواء فى جانب انتشار الإسلام أو ضده .

من المعروف أن الفتح الإسلامى للمنطقة قد بدأ عام ٢١ هـ على يد عمرو ابن العاص الذى أرسل جيشا بقيادة عقبة بن نافع إلى برقة ، فلم يحاربه أهلها ، وآثروا الصلح فصالحهم على مبلغ سنوى يدفعونه ، وتم فتح برقة سنة ٢٢ هـ . وبعد ذلك اتجه عقبة إلى الواحات الداخلية حيث لواتة ونفوسة وهوارة التى اشتهرت بمقاومتها للحكم البيزنطى ، ووفق فى فتح بعض مناطقها ، ومنها عاصمة فزان حينئذ «زويلة» . وفى نفس الوقت سار عمرو ببقية الجيش متجها إلى طرابلس ففتح المدن التى صادفته فى طريقه إلى طرابلس . وحين وصل طرابلس حاصرها نحو شهر ثم اقتحمها ، وهرب الروم من البحر وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأمنوا الناس على أموالهم وأعراضهم ومعابدهم . وتحرك عمرو لفتح صبراته وأرسل

بسر بن أبى أرطاة لفتح ودان ... وهكذا استمر الفتح الإسلامى يتقدم من نصر إلى نصر حتى تم فتح جميع الأراضى الليبية . وكانت خطة عمرو بن العاص العسكرية تهدف إلى التوغل فى الأراضى الإفريقية ومواصلة السير نحو عاصمة إمبراطور شمال إفريقية «سبيطلة» ، ولكن عمر بن الخطاب لم يسمح له بذلك . ولهذا توقف المد الإسلامى ولم يبدأ فتح الشمال الإفريقى إلا بعد موت عمر وتولى عثمان الخلافة [١] .

وفى عهده قام عبدالله بن سعد بن أبى سرح بدخول الأراضى التونسية وانتصر على إمبراطور شمال إفريقية المستقل جرجير ، وكان ذلك عام ٢٧ أو ٢٨ أو ٢٩ هـ على اختلاف فى الروايات . ثم توجهت فيالق مختلفة إلى أماكن أخرى فى البلاد التونسية ففتحتها [٢] .

وفى أثناء إتمام عمليات الفتح كانت بعض البلاد تنتقض بمجرد خروج جيش الفتح منها . وقد قام معاوية بن حديج بثلاث غزوات لإفريقية أعوام ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ هـ [٣] .

كما تولى عقبة ثلاثة أعمال حربية فى ليبيا ، أولها مع جيش الفتح ، وثانيها فى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر (من ٣٨ - ٤٣) ، والثالث سنة ٤٦ أو ٤٩ هـ وفيها أعيد فتح فزان وودان وغدامس ... وغيرها .

وفى آخر الأمر تولى عقبة ولاية إفريقية عام ٥٠ هـ بعد أن اخترق الحدود التونسية واتجه إلى القيروان التى اختطها معاوية بن حديج فلم تعجبه فواصل

---

(١) ، (٢) القيروان ص ٢٤ - ٢٩ .

(٣) السابق ص ٣٢ .

السير حتى نزل فى مكان مدينة القيروان اليوم وهنالك أسس مدينة القيروان التى أصبحت بعد سنوات قليلة عاصمة المغرب العربى ومركز الإشعاع الفكرى فى شمال إفريقية[١] . ومنذ ذلك الوقت أصبح الحكم الإسلامى فى ليبيا راسخا متينا، إذ لانسمع أن سكان أى من مناطقها قد تأثروا بثورة كسيلة ، وبمقتل عقبة سنة ٦٣ هـ وبذا انفصلت ليبيا مؤقتا عن حركة المقاومة التى استطار شررها فى إفريقية ، وأصبحت ليبيا مركزا للجيوش الإسلامية ، أو منطلقا للقوى الذاهبة إلى المغرب لإخضاع الثورات فى إفريقية ، أو ملاذا للتراجع والانحياز . حتى إنه لما قتل عقبة واحتل كسيلة مدينة القيروان وانقلبت إفريقية ضد العرب انسحب زهير ابن قيس البلوى الذى كان عقبة قد خلفه فى القيروان إلى برقة انتظارا لرأى الخليفة بدمشق[٢] .

وعلى الرغم من تمام الفتح الإسلامى للمغرب على يد موسى بن نصير عام ٨٨ هـ[٣] ، فقد تخلل فترة الفتح هذه وتلاها إلى نهاية القرن الأول كثير من

---

(١) القيروان ص ٣٣ .

(٢) حسن سليمان محمود ص ١٠٣ ، ١٠٤ وتاريخ ليبيا لإحسان عباس ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) يعلل الأستاذ دبوز طول الفترة التى استغرقها الفتح الإسلامى للمغرب بالأسباب الآتية :

١- كثرة الممالك وتعددها واستقلال كل منها . ولم يكن المغرب دولة واحدة يخضع إذا أسقطت حكومته بل كانت فيه حكومات وملوك ، فإذا هزم أحدهم لم يفتح المسلمون إلا ناحيته . ٢- كره البربر للأجنبى . ٣- عداوة الروم المستمرين للإسلام . ٤- قوة المغرب . ٥- طبيعة بلاد المغرب الجبلية . ٦- شجاعة البربر وإباؤهم وتمسكهم بمبادئهم (١٠٩/٢) . وقد ظهرت الصعوبات فى حكم البربر وإسلاس قيادهم من قديم . ومع أن الرومان كانوا - فى الغالب - يقنعون بفرض الجزية على البربر وتجنيدهم ، وتركوا حكم القبائل لشيوخها ، فإن نار الرغبة فى الاستقلال لم يخمد أوارها فى صدور البربر ، فبدت حينا فى شكل فتن يقودها وطنيون تتفاوت درجة تأثرهم بالرومان مثل تاكفاريناس Tacfarinas (١٧ - ٢٩ م) ، وحينا آخر فى شكل غارات يقوم بها بدو الصحراء أو القبائل التى تعيش فى الداخل ، والتى لم تأخذ بأسباب الحضارة ... ومنذ نهاية القرن =

الحركات الخارجية التى كانت تهدف إلى التخلص من الحكم الجديد ، ونبذ سلطان الإسلام . يقول ابن خلدون : «ارتد البربر فى إفريقية عن الإسلام اثنتى عشرة مرة ، ولم يثبتوا على الإسلام إلى فى عهد موسى بن نصير»[١] . وقد كان من أكبر الحركات المضادة ثورة «الكاهنة» التى أشعلت البلاد نارا فى طولها وعرضها . ومهما يكن سبب هذه الثورة ، فقد كانت ثورة دينية تهدف إلى التخلص من النفوذ الإسلامى . واسم هذه الكاهنة «داهية» وكان لها عسكر عظيم من البربر والروم ، وكان نفوذها فى منطقة جبل أوراس ، وكانت امرأة ساحرة ذات شوكة وقوة[٢] . وقد استفحل أمر هذه الكاهنة فيما بعد حتى شمل المنطقة من طرابلس إلى طنجة ، وحاربها حسان بن النعمان (ولى إفريقية والمغرب سنة ٧٧ هـ أو سنة ٧٨ هـ) فى معقلها عند جبال أوراس ولكنها هزمته شر هزيمة ، وفر حسان فى نفر قليل من أصحابه إلى طرابلس . وأرسل بهزيمته إلى عبدالملك ابن مروان بمصر فأرسل إليه عبدالملك أن ينتظر حيث أدركه كتابه ، فأدركه فى أراضى سرت فأقام بها خمس سنين ينتظر المدد . وأتاه المدد سنة ٨٤ فاستأنف حسان غزو الكاهنة ، ونشبت بينهما حرب قاسية انتهت بقتل الكاهنة فى المكان المعروف اليوم باسم بئر الكاهنة فى الجزائر وزوال ملكها سنة ٨٤ هـ[٣] . وكانت

= الثالث الميلادى أخذ نفوذ الرومان يتقلص ، كما تشهد بذلك حركات البربر الناشطة التى كانت تزداد قوة على قوة . ووضحت شخصية البربر باعتناقهم مذاهب تخالف مذهب حكامهم كالدوناتية. (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة بربر) .

(١) حسن سليمان محمود ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) المونس لابن دينار مقتبس فى : ليبيا فى كتب التاريخ وتسير لإحسان عباس ص ١٩٨ – ٢٠١ .

(٣) ولاة طرابلس للزاوى ص ٢٩ ، ٣٠ . ويبدو أن الكاتب قد أخطأ فى اسم عبدالملك بن مروان وأن صحة الاسم «عبدالعزيز بن مروان» الذى ولى مصر منذ عام ٦٦ هـ إلى عام ٨٥ هـ كما جاء فى النجوم الزاهرة . وانظر : القيروان ص ٤٢ .

الكاهنة قد أصدرت أوامرها - حتى تعوق تقدم جيوش المسلمين - بقطع المزروعات والأشجار ، وحرق الغابات والأحراش ، وتدمير كل ما يوجد فى طريق المسلمين من طرابلس حتى طنجة ، وذلك فيما بين عامى ٨٢ - ٨٤ [١] ، مما ألحق بالبلاد شر الأضرار وأدى بالكثيرين إلى الهجرة ومغادرة البلاد . يقول ابن عذارى: «يقال إن إفريقية كانت ظلا واحدا من أطرابلس إلى طنجة ، وقرى متصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن ... مسيرة ألفى ميل فى مثله ، فخربت الكاهنة كل ذلك» [٢] . وبمقتل الكاهنة وتشتت جمعها قفلت صفحة من صفحات الحروب الدينية ، ولم يأت عام ١٠٠ هـ حتى كان الإسلام قد بسط نفوذه على الإقليم كله . يقول صاحب المونس: «وعلى رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ، ولم تقدم بعدها للنصارى والبربر قائمة ، فمنهم من دخل الإسلام ومنهم من بقى على النصرانية فضربت عليهم الجزية» [٣] .

وإذا كان القرن الأول قد مر تقريبا فى إتمام عملية الفتح وتثبيت جيوش المسلمين فى المنطقة ، فإن القرن الثانى يمتاز بأنه قرن الدعوة الإسلامية وإرسال الدعاة ورجال الدين إلى المنطقة ليعلموا الناس دينهم ويطلعوهم على أسراره وخفاياه . وإذا كان موسى بن نصير (فى أواخر القرن الأول الهجرى) قد وصف بأنه أول من اهتم بتعليم البربر القرآن الكريم وعلوم الدين [٤] ، فإن إسماعيل بن

---

(١) الزاوى : تاريخ الفتح العربى ص ٦ .

(٢) البيان المغرب ٣٦/١ .

(٣) حسن سليمان محمود ص ١١٧ .

(٤) المرجع ص ١١٥ ، ١١٦ .

عبيدالله بن أبى المهاجر (تولى فى المحرم سنة ١٠٠ هـ) قد اقترن عهده بوفود عشرة فقهاء من أعيان التابعين إلى المغرب لإرشاد البربر وتعليمهم الدين الإسلامى واللغة العربية . وقد تم ذلك عام ١٠٠ هـ فى خلافة عمر بن عبدالعزيز وانتشروا فى أنحاء البلاد . وقد كان إسماعيل نفسه حسن السيرة ولذلك لم يبق أحد من البربر فى ولايته إلا أسلم ، مع قصر فترة ولايته التى لم تبلغ العامين[١] .

أما أسماء هؤلاء العشرة من فقهاء التابعين فقد حفظها لنا أبو العرب فى كتابه «طبقات علماء إفريقية وتونس» حيث قال[٢] : «حدثنى فرات بن محمد أن عمر بن عبدالعزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقية ، منهم : مَوْهَب ابن حى المعافرى ، وأقام بإفريقية حتى مات بها ، وحبان بن أبى جبلة ، وإسماعيل بن عُبيد الله الأعور القرشى مولاهم ، وكان رجلا صالحا استعمله عمر ابن عبدالعزيز ليفقههم أيضا ، وإسماعيل بن عبيد مولى الأنصار ... وطلق بن حابان ... وبكر بن سوادة الجذامى ، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى ... وأبو عبدالرحمن الحبلى ، واسمه عبدالله بن يزيد ، مات بإفريقية ، وله بها مسجد ، وسعيد بن مسعود التجيبى ..»[٣] .

ولم يكن هؤلاء الدعاة وحدهم السبب فى إقبال البربر على الإسلام ، فقد كانت القدوة الحسنة والمعاملة الطيبة التى عامل بها الحكام الصالحون رعيتهم من

---

(١) انظر : شيت خطاب : قادة فتح المغرب ١٦٦/٢ ، ١٦٧ وحسن سليمان محمود ص ١١٦ ، ١١٧.

(٢) ص ٨٤ – ٨٧ .

(٣) هؤلاء تسعة وقد أسقط المؤلف العاشر واسمه أبو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير (هامش رقم ١ من المرجع السابق ص ٨٤) .

الأسباب الهامة فى تحبيب الناس فى ذلك الدين الوافد ، وجعلهم يشعرون بالسيادة والطمأنينة والرضا فى ظله . ومن أبرز هؤلاء الولاة القدوات نجد :

١- حسان بن النعمان الذى منح البربر الذين يؤيدون الفتح حق المساواة الكاملة مع العرب فى الأعطيات والحقوق ، وأدخل قسما من البربر فى الجيش الإسلامى ، واعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحا لا عنوة ، وأقر البربر على ما فى أيديهم من الأرض . وبذلك لم يسلب البربر أرضهم ولا ميزاتهم المادية الأخرى [١] .

٢- إسماعيل بن عبيدالله بن أبى المهاجر السابق الإشارة إليه . ويذكر المؤرخون دليلا على فضله وتورعه القصة التالية : كان من عادة الخلفاء ألا يدخلوا خزائنهم شيئا مما يرسله الولاة إلا بعد أن يشهد عشرة عدول أنه مال مستصفى حلال بعد دفع الأعطيات ، والإنفاق على مصالح الرعية . وفى أيام سليمان الخليفة أقبلت أموال إفريقية وشهد ثمانية من العدول أن المال حلال . أما إسماعيل هذا والسمح بن مالك الخولانى فقد أبيا أن يحلفا . وكان عمر ابن عبدالعزيز حاضرا المجلس فأعجبه موقف الرجلين . وما أن جاء إلى الحكم حتى أولى إسماعيل أمر إفريقية [٢] . ويقول عنه دبوز : أبو المهاجر رأى أن المسلمين بدينهم الذى يفتّح القلوب ، وليس بسيوفهم ، وسلاح الإسلام الأكبر هو الدعاية التى ينتشر بها ... فوضع خطة على أساس تطهير إفريقية من الروم الذين يبثون الدعاية ضد الإسلام ... وهو أول من دخل البلاد البربرية المستعصية فبث فيها الإسلام ، وهو الذى وصل البربر بالعرب ، وفتح قلوب البربر لمحبة العرب بلينه وكياسته وحسن تأتيه [٣] .

---

(١) شيت خطاب ٢/١٧٠ ، ١٧١ وإحسان عباس : تاريخ ليبيا ص ٣٥ .

(٢) حسين مؤنس : ثورات البربر ص ١٤٦ .

(٣) ١/٣٠ - ٣٢ .

وقد كان انتشار الإسلام فى المغرب خلال القرن الأول الهجرى ، وتقويضه دعائم الأديان السابقة ، وقضائه على المسيحية قضاء مبرما – من القضايا التى لفتت نظر المستشرقين ، وعبروا عنها كل بطريقته الخاصة وحاولوا تعليلها . يقول Playfair : «يعد مجيء الإسلام إلى هذه المنطقة أغرب حركة شاهدها العالم على الإطلاق . فقد ظهر وانتشر بسرعة عجيبة ، وطغى على كل المعالم المسيحية ، والمظاهر الحضارية فى الشمال الإفريقى»(١) . ويقول Randall-Maciver و Anthony Wilkin : «إن سيطرة العرب على الأماكن المنبسطة من الشمال الإفريقى تستحق التقدير . ولكن الغريب أن سكان الجبال – الذين عاشوا دائما مستقلين – لم يقبلوا الإسلام فقط، بل ظلوا مخلصين له»(٢) . ويقول : Peyronnet «تحير كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر فى ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم»(٣) .

وقد اختلفت وجهات نظرهم فى تعليل هذه الخاصة الاكتساحية التى اتصف بها الإسلام . فمنهم من عزاها إلى تعصب الولاة المسلمين ، ووسائل الضغط والإكراه التى باشروها ضد أبناء الشعوب المفتوحة . ولكن توماس أرنولد نفسه قد تكفل بالرد على هذا الرأى قائلا :

١– لايصح أن نلتمس تدهور الكنيسة المسيحية فى شمال إفريقيا فى تعصب الولاة المسلمين إذ ليس هناك دليل بين يؤيد مثل هذا الرأى .

---

(١) The Bibliography of the Barbary States القسم الأول ص ٥٦٠ .

(٢) Libyan Notes ص ٨ .

(٣) الميلى ١/٣٥١ .

٢- كان عدد الأهالى المسيحيين فى نهاية القرن السابع الميلادى قليلا جدا . وإن استمرار بقائهم فى ظل الحكم الإسلامى لأقوى دليل على انعدام وسائل العنف والإكراه فى التحول إلى الإسلام .

٣- انحلال الكنيسة التدريجى دليل تسامح المسلمين ، فقد وجد بعد الفتح الإسلامى بثلثمائة سنة تقريبا ، ما يقرب من أربعين أسقفية كانت ما تزال باقية هناك . وفى سنة ١٠٥٣ م حزن البابا ليو التاسع على أنه لم يكن يوجد إلا خمسة أساقفة يمثلون الكنيسة الإفريقية التى كانت من قبل تتمتع بالشهرةوالازدهار[١] .

أما المنصفون من المستشرقين فقد عزوا هذه الظاهرة إلى الخصائص الذاتية التى يتمتع بها الإسلام ، والسمعة الحسنة التى كانت تسبقه إلى البلاد قبل فتحها . وسنكتفى بشهادة اثنين منهم فى هذا الخصوص . أما أولهما فهو جوستاف لوبون الذى يعزو سرعة انتشار الإسلام إلى الأسباب الآتية :

١- لم تُعْم الفتوحات أبصار العرب ، ولم تجعلهم يقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ولم يسيئوا معاملة المغلوبين ، ولم يكرهوهم على اعتناق الدين الذى كانوا يرغبون فى نشره فى العالم . ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت غير خاضعة لهم بعد ، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا سورية مؤخرا . ولكن العرب اجتنبوا ذلك .

٢- حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة فى اتساع فتوحهم، وفى سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم التى

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٤ ، ١٤٩ .

رسخت ، وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم .

٣- أن النظم الإسلامية كانت من البساطة فى الحقيقة بحيث لاعت احتياجات طبقات الأهلين الوسطى والبسيطة أيضا [١] .

وأما ثانيهما فهو سكوت الذى يقول ما ترجمته :

إذا أردنا أن نفهم قوة الديانة المحمدية ، وسر انتشارها ، ونموها السريع فى أيامها الأولى فى آسيا وإفريقية فإننا لابد أن نعلم ما يأتى : كان دعاة محمد يأتون كرسل للأمل والرجاء والتحرير لشعوب عانت العبودية والاسترقاق . وعلى عكس ما كانت تتعرض له الشعوب تحت ظل المسيحية من اضطهاد ورعب ، جاء الدين الجديد يبشر بإله واحد رحيم غفور . ووسط الفساد السياسى الذى كان موجودا - قدم الإسلام صورة للمجتمع الدينى الذى يسوده الوئام . كذلك فالإسلام يخاطب الأرقاء والمستضعفين ، ويزيل الحواجز الطبقية أو الاجتماعية . كل المسلمين سواسية أمام الله . لا مسلم يمكن أن يتخذ عبدا من نفس دينه . إن عبدا أو أى رجل يمكن أن يصل باستعداده إلى أعلى مرتبة فى البلد ... والإسلام بجانب هذا يعد أبسط الديانات وأقربها إلى الفطرة ، لا أستثنى المسيحية ولا اليهودية . «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هذه أبسط عقيدة وأوضحها وأثبتها وأكثرها صلابة وتركيزا ، تدور حولها الديانة الإسلامية . لاتوجد مماحكات دينية ، ولا مكان فيها للمبشرين والوعاظ الكنيسيين . إنها ثورة ضد كل شىء يتعلق بالخلاف العقائدى وبالتبشير الدينى . إنها عقيدة الرجل الساذج البسيط ذى

---

(١) حضارة العرب ص ٦٠٥ .

الشخصية القوية ، الذى تمرد على التهاويم والأحاجى التى سيطرت على العقلية البشرية إذ ذاك . إن دين محمد يخاطب حتى العبيد والأميين ... إنه يلغى أى وساطة بين العبد والرب . وإن الرجل العادى الذى عجز عن فهم نظرية التثليث وجد سهلا أن يفهم عقيدة التوحيد الفطرية[١] .

ومن أجل هذا لانعجب إذا روت لنا كتب التاريخ أن من البربر من سعى إلى الإسلام قبل أن يطأ الإسلام أرضهم . فبعد فتح مصر قدم على عمرو ستة نفر من البربر يبدون رغبتهم فى الإسلام ، لأن جدودهم أوصوهم بذلك ، فوجههم عمرو إلى عمر فأكرمهم ، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يجعلهم على مقدمة المسلمين . وكانوا من أفخاذ شتى[٢] . كذلك لانعجب إذا علمنا بدخول الإسلام المناطق الصحراوية وانتشاره بين الطوارق فى فترة مبكرة جدا لاتتجاوز القرن السابع الميلادى (ينتهى القرن السابع الميلادى عام ٨٠ هـ) ، ويدل على ذلك مقابر العرب الذين قدموا للتبشير بالدين ، تلك المقابر الموجودة فى تيوتين Tio Tine فضلا عن نقوش تيماسو Timissao فى سقف أحد الكهوف[٣] .

وقد كان من الممكن أن تسير الأمور على خير ما يرجوه المسلمون ، لو سار الخلف من الولاة على سنة السلف ، وغلبوا دينهم على دنياهم ، وأصلحوا آخر الأمر بما صلح به أوله . ولكن جاءت طبقة من الولاة فتحت للناس أبواب الشر ، وسمحت للفتن أن تطل برءوسها - بما خالفوه من أوامر الدين ، وبما ساروا به فى الرعية من طرق يأباها الإسلام وينهى عنها الخلق القويم ، وبما

---

(١) The Romance of the Nearest East ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) دبوز ٢/٧ ، ٨ ومقدمة «الوضع» لطفيش ص ٦ ، ٧ .

(٣) الصحراء الكبرى ص ١٠٢ .

عرف عنهم من طمع فى أخذ أموال الرعية وقسوة فى جمع الخراج منهم . وهكذا لم تنعم بلاد المغرب فى ظل الإسلام بالاستقرار المأمول ، ولم يدم لها هدوؤها وطمأنينتها ، بل اشتعلت ثورات وفتنا ، وتفرقت شيعا وأحزابا ، وتوزعت دويلات وولايات . ونذر أن تمر فترة من الزمن دون اضطرابات وقلاقل ، وثورات وهجمات ، وكرّوفرّ ، وإقبال وإدبار . وكان القائم بمعظم هذه الثورات سكان البلاد الأصليين من البربر . ولم تكن ثوراتهم ضد الدين بل كانت ضد الحاكم الظالم ، ولم تكن بهدف الخروج على الإسلام ، بل كانت بهدف تأديب الوالى المستبد . ولهذا فإنه على الرغم من كثرة الثورات والحركات الخارجية البربرية لانجد حركة واحدة منها – منذ القرن الثانى الهجرى – تهدف إلى استبدال دين آخر بالإسلام، أو العودة إلى الحياة الجاهلية الأولى . وهذا فرق كبير بين ثورات القرن الأول وثورات القرن الثانى وما يليه ، لابد أن ينتبه إليه كل من يرصد الحركات الثورية فى المغرب العربى . وفى ذلك يقول Gsell : «كان البربر يثورون على العرب إما أنفة من أداء الخراج ، وإما طمعا فى الاستقلال ، وغرضهم إخراج العرب من وطنهم . وقد أسسوا دويلات فيما بين طرابلس والأندلس ومع ذلك لم يفكروا فى رفض لغة العرب وديانتهم والرجوع إلى اللغة اللاتينية والدين المسيحى ، فبقى مؤلفوهم فى التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية ، وشاد ملوكهم قصورهم على الفن العربى ، وصارت بعض القبائل البربرية تلفق أنسابا تتصل بها من العرب»[١] .

ونكتفى بذكر الأمثلة الثلاثة الآتية لظلم بعض الحكام وتعسفهم تاركين الاستقصاء للمشتغلين بالتأريخ السياسى :

---

(١) الميلى ١/٣٥٠ .

١- موسى بن نصير رجل نشيط قادر ، ومحارب ماهر ، ولكنه لم يكن خبيرا فى سياسة الشعوب . فبدلا من أن ينفق وقته فى التنظيم وكسب القلوب ، مضى يحارب البربر ، ويرميهم بالجيش تلو الجيش حتى روعهم ، وشككهم فى مرامى الحكم الإسلامى ، وانصرفت همته إلى الغنيمة والسبى . وأسرف فى ذلك إسرافا أنكره عليه العرب أنفسهم ، فقد روى أنه لما أرسل إلى الوليد عشرين ألفا من السبى (وهو مقدار الخمس فقط) قال الناس : ابن نصير والله أحمق . من أين له عشرون ألفا يبعث بها إلى أمير المؤمنين فى الخمس !! ونتيجة لهذه السياسة ريع البربر ، وجعلوا يتركون مساكنهم ، ويتهاربون أمامه ، واضطر معظمهم إلى الاستئمان وبذل الطاعة عن رهبة . ومضى على ذلك هو وبنوه من بعده وكبار رجاله قرابة عشر سنوات، أصابوا من المغانم والسبى ما لم يسمع بمثله من قبله ، وفاق ما غنمه المسلمون من فارس وغيرها من الأقاليم[1] .

٢- يزيد بن دينار بن أبى مسلم (١٠٢ هـ) الذى وصفته المصادر القديمة بسياسة الظلم والتعسف ، والذى كان ماديا ، ورأى قلة الدخل بسبب إسلام من أسلم من البربر ، فعزم أن يسير بسيرة الحجاج فى أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ، ممن كان أصله من السواد (القرى) من أهل الذمة فأسلم بالعراق فإنه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم أهل ذمة . وزعم يزيد أن بلاد المغرب فىء للمسلمين ومغنم لهم فتحت عنوة بالسيف ، وهو عكس ما رآه حسان ، وأقره موسى بن نصير، وكل الولاة من بعده .

---

(١) حسين مؤنس : ثورات البربر ص ١٤٤ .

وكانت النتيجة الحتمية قتل يزيد بعد الثورة عليه ، وتعيين وال آخر مكانه[١].

٣- إسماعيل بن عبدالله بن الحبحاب أساء السيرة بطنجة وأراد أن يخمّس من أسلم من البربر وزعم أنه الفيء ، فانقضوا عليه[٢] .

ومهما يكن من شيء فقد استقر الإسلام فى البلاد ورسخ منذ بداية القرن الثانى الهجرى ، ولم يصب بأى نكسة منذ ذلك الوقت حتى الآن ، رغم تكرار تعرض البلاد لهجمات مسيحية من إيطاليا وفرنسا وأسبانية ومالطة وغيرها .

وقد كانت الحركات الانفصالية تهدف إلى الاستقلال عن مقر الحكم وليس الردة عن الإسلام وربما كانت أول حركة استقلالية للقيروان عن المشرق تلك التى قام بها عبدالرحمن بن حبيب ضد أبى جعفر المنصور . وقد كان ابن حبيب شخصية سياسية نشأ فى المغرب والأندلس وتولى الحكم بمساعدة سكان إفريقية[٣] .

وقد زاد من رسوخ الإسلام فى المنطقة قيام دويلات بربرية[٤] ووجود كثير من الفرق الإسلامية ، والمذاهب الفقهية ، وشدة التنافس بينها ، ومحاولة أعوان كل فرقة أو مذهب أن يكسبوا أنصارا جددا وأن يكون لهم السلطان دون غيرهم .

---

(١) دبوز ٢/٢٠١ ، ٢٠٢ والقيروان ص ٤٥ .

(٢) المنهل العذب ص ٥٩ .

(٣) القيروان ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) يقول توماس أرنولد : لم ترسخ قدم الإسلام بين البربر إلا بعد أن اتخذ شكل حركة قومية وأصبح مرتبطا بتولى قبائل البربر الحكم . تلك الدول التى نشأ فى معظمها كثير من البربر الإسلام، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلال السياسى (ص ٣٥١) . ويقول : لايبعد أن تكون الحركة القومية الكبرى التى نشأت بين قبائل البربر وأعنى بها ظهور الموحدين فى بداية القرن ١٢ م قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التى كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين (ص ٣٥٣) .

وأشهر الفرق الإسلامية التى كونت لها مدارس بالمنطقة : الخوارج والأباضية والمعتزلة . أما المذاهب الفقهية فكان أشهرها المذهبين الحنفى والمالكى. وقد كان الخوارج من أسبق الناس وصولا إلى المغرب ، إذ كان ظهورهم قبل منتصف القرن الأول الهجرى ، ثم اضطهدوا فاضطر بعضهم إلى الهرب وقصدوا شاطىء تونس وجزيرة جربة . وقد لاقت مبادىء الخوارج أذنا صاغية بين البربر ، وبخاصة فى المغرب الأقصى وجنوب تونس ، واعتنقها الكثيرون منهم ، ولذلك لما تنادى به من مساواة ، وما تعلنه من أن الخليفة لايجب أن يكون قرشيا . وقد كان أول من دعا إلى المذهب الخارجى فى المغرب عكرمة بن عبدالله المتوفى سنة ١٠٧ هجرية ، وكان من كبار تلاميذ ابن عباس ، ومن رجال العلم فى عصره ، ومن الفقهاء الكبار فى الدين ، ومن الشخصيات العلمية الناضجة . وكان ثائرا لتحيز الأمويين لأنفسهم وتفريقهم بين المسلمين [١] .

أما الأباضية [١] فينسبون إلى عبدالله بن أباض رغم أن إمام الأباضية هو جابر بن زيد . وقد حملوا هذا الاسم فى زمن عبدالملك بن مروان . أما انتقال هذه المدرسة إلى المغرب بعامة وطرابلس بخاصة فقد تم فى أوائل القرن الثانى الهجرى على يد سلمة بن سعد الذى دعا لمبادئه قرابة عشر سنوات ، ثم كون بعثة علمية سافرت إلى البصرة للقاء أبى عبيدة بن أبى كريمة البصرى زعيم الأباضية فى

---

(١) دبوز ٢٧٩/٢ ، وظهر الإسلام ٢٩٣/١ ، A History of the Colonization of Atrica ص ٥٦ . ولكن ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن هذه الحركة قد بدأت فى المغرب على يد ميسرة السقاء الطنجى (عام ١٢٢ هـ) . راجع مادة بربر .

(٢) من الغريب أن نجد كتاب الأباضية المحدثين مثل على معمر وعمرو نامى ومحمد دبوز يصرون على كتابة الكلمة بهمزة من أسفل مع أنها بهمزة من أعلى . يقول صاحب الجواهر المنتقاة : «عبدالله بن أباض والنسبة إليه أباضى بفتح الهمزة» (ورقة ٧٩) .

عصره . وعادت البعثة لتنشر المبادىء الأباضية ، وتعمل على قيام دولة أباضية . ويحرص الأباضيون دائما على أن يفرقوا بين مبادئهم ومبادىء الخوارج ، ومع ذلك نجد كثيرا من الباحثين لايميز بين الفرقتين . وقد لخص الأستاذ دبوز أهم مبادىء الأباضية وبين الفرق بينهم وبين الخوارج فيما يأتى :

١- كلاهما أنكر التحكيم وتمسك بالحكم الجمهورى .

٢- أن الخوارج مغالون والأباضية معتدلون .

٣- هناك فروق بينهما فى الاعتقاد والمسائل الجوهرية والسلوك .

٤- الأباضية لايحكمون بكفر مرتكب الكبيرة ، ولكن يرونه عاصيا بخلاف الخوارج .

٥- الأباضية لايقاتلون إلا دفاعا عن النفس أو الدين بخلاف الخوارج[1] .

أما المعتزلة فيبدو أن مركز تجمعاتهم كان بالمغرب الأوسط والأقصى ، وأنهم كانوا يكثرون فى «تيهرت» عاصمة الدولة الرستمية . يقول البارونى : إن الواصلية من المعتزلة قد خرجوا على الإمام وحاربوه ، وأنه لما أنهى الإمام عقد الهدنة مع الواصلية استعدلهم وتهيأ لإطفاء جذوة نفاقهم . ولما كان جبل نفوسة وما يليه من حيز طرابلس من جملة ولايات مملكته التى تدين بالطاعة له وتتفانى فى رضائه ، وفيه من أهل النجدة والشجاعة وأبطال الحرب وفحول العلماء ما يعد بالألوف ، رأى أن يطلب منهم الإعانة ، فأرسل إلى عامله بالجبل كتابا طلب منه جندا يتألف من ٤٠٠ نفر ، ١٠٠ من خيرة فرسان نفوسة ، و ١٠٠ من المتبحرين فى التفسير ، و ١٠٠ من علماء الكلام ، و ١٠٠ من العلماء المتضلعين فى الحلال

---

(١) دبوز ٢/٣٩٠ - ٣٩٤ .

والحرام . ولكن أهل نفوسة اختاروا أربعة كل واحد منهم يقوم مقام مائة . وكان الذى اختاروه ليمثل علماء الكلام العلامة مهدى النفوسى . ولما التقى الإمام الرستمى بمهدى النفوسى قال له : أصغ إلى حتى أعرض عليك ما جرى بينى وبين المعتزلى من المحاورات لتكون على بصيرة من الأمر ، وتعلم مقدار معرفته . فأصغى إليه ، وصار يسرد له الحديث . وكلما رأى خطأ فى كلام المعتزلى قال له: هاهنا حاد عن الصواب وسفسط ، وكان من الصواب أن تجيبه يا أمير المؤمنين بكذا ... وقد دخل مهدى النفوسى فى نقاش مع المعتزلة فأفحم - كما يقول البارونى - فى يوم واحد تسعين منهم . ودعى المعتزلة إلى مناظرة علنية بين شيخهم ومهدى النفوسى انتصر فيها مهدى ، وسلم المعتزلة بهزيمتهم[1] .

وقد كان المذهب المالكى أسبق المذاهب الفقهية شيوعا فى المغرب ، ثم تلاه مذهب أبى حنيفة . أما المذهب الشافعى فلم يجد له أنصارا عندهم . يقول المقدسى : بسائر المغرب (ما عدا الأندلس) إلى مصر لايعرفون مذهب الشافعى رحمه الله ، إنما هو أبو حنيفة ومالك . وكنت يوما أذاكر بعضهم فى مسألة ، فذكرت قول الشافعى فقال : اسكت . من هو الشافعى ؟ إنما كانا بحرين : أبو حنيفة لأهل المشرق ، ومالك لأهل المغرب ، أفنتركهما وتشتغل بالساقية . وسمعتهم يحكون عن قدمائهم فى ذلك حكايات عجيبة حتى قالوا : إنه كان الحاكم سنة حنفيا وسنة مالكيا . قلت : وكيف وقع مذهب أبى حنيفة رحمه الله إليكم ولم يكن على سابلتكم ؟ قالوا : لما قدم ابن وهب من عند مالك رحمه الله وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف أسد بن عبدالله لجلالته وكبر نفسه أن يدرس عليه ، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا . فلما طال مقامه عنده قال له :

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/١١٦ - ١٢٥ .

ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمى ، وكفيتكم به الرحلة . فصعب ذلك على أسد، وسأل : هل يعرف لمالك نظير ؟ فقالوا : فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة . قالوا : فرحل إليه وأقبل عليه محمد إقبالا لم يقبله على أحد ، ورأى فهما وحرصا فزقّه الفقه زقا . فلما علم أنه قد استقل وبلغ مراده فيه سيّبه إلى المغرب . فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروعا حُيرتهم ، ودقائق أعجبتهم ، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب ... وفشا مذهب أبى حنيفة بالمغرب[١] .

وقد قوى مذهب أبى حنيفة فى المغرب بعد تولى أبى يوسف فى عهد الرشيد خطة القضاء ، فكان القضاة يعينون من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية . ويقول عياض : ظهر مذهب أبى حنيفة بإفريقية قرابة ٤٠٠ عام ثم انقطع منها [٢] . وقد كانت بداية اضمحلاله على يد المعز بن باديس الصنهاجى (توفى سنة ٤٥٤) الذى كان أول الأمرشيعيا يدعو لآل عبيد ، ثم قطع دعوتهم ودعا لبنى العباس ، وحمل الناس على مذهب الإمام مالك[٣] . واقتحم النفوذ المالكى فيما بعد معاقل الأباضية ، فيقول البارونى عن جبل غريان إنه عامر بقبائل مالكية المذهب خرجوا عن مذهب الأباضية منذ عصر الشيخ إسماعيل بن موسى الجيطالى [٤] .

---

(١) المسن المستقيم ص ... .

(٢) الأدب المغربى لابن تاويت والصادق عفيفى ص ٤٦ ، ظهر الإسلام ٢٩٣/١ .

(٣) ظهر الإسلام ٢٩٣/١ و ٢٩٤ .

(٤) ٨٩/٢ .

وقد حافظت على الإسلام فى المنطقة عوامل أخرى أدت إلى استمراره ، بل وعملت على نشره فى المناطق المجاورة ، ومن ذلك :

١- قيام الدولة المرابطية التى تعد أول دولة وحدت المغرب الأوسط والأقصى ، وقامت بدور كبير فى نشر الإسلام على الساحل الإفريقى الغربى وبلاد السودان . ويجمع المرابطون بين الجهاد والثقافة الدينية .

٢- كذلك كان للموحدين أثر محمود فى الجهاد ضد الصليبيين فى الأندلس ، كما كان من مآثرهم نشر دعوتهم التى تقوم على التوحيد . وكان للموحدين الفضل العظيم فى نشر الثقافة الإسلامية[١] .

٣- كذلك كان لكثرة المساجد والزوايا ومجالس العلم أثر كبير فى نشر الإسلام وتعاليمه .

---

(١) انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية لحسن إبراهيم حسن ص ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ .

obeikandl.com